



# 40

# العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

## الفصل العاشر

### الحُدية والعاطفة، الخيال والواقع

#### 2. المزاج وضبط النفس

بالنسبة للعقل الغربي، يعتبر أكثر ما ذكرناه من تناقضات وتفاوتات غريبة وإثارة هو دون شك الجمع بين ضبط النفس والانفجار العاطفي، أو ما يمت إليهما من الجمع بين الخمول وانفجار النشاط. فهذه من الأمور التي لا يألفها الغربي بتاتا، ففي النظرة العامة الغربية يتوقع من المرء أن يسير على نهج واحد لا أن يتقلب من طرف إلى طرف يعاكسه تماما. وإذا ما حدث، وذلك في ظروف استثنائية، أن استدرج الغربي إلى فعل يعاكس سلوكه المنضبط المعتاد، فإنه يُعذر، أو يعتذر، بأنه فقد توازنه للحظات؛ وعادة ما يقطع على نفسه عهدا بأن لا يدع شيئا مدمرا كذلك يحدث له ثانية.

أما في العالم العربي، فلا يوجد مثل لهذه المسؤولية يرتبط بفقدان السيطرة على الأعصاب أو انفجار المزاج. بل على العكس: فمثل هذه الاختلاجات يتوقع أن تحدث من وقت لآخر، لأن نظرة العربي للطبيعة الإنسانية تفترض فقدان القدرة على ضبط الأعصاب بشكل دائم ودون انقطاع، وأي حدث قد يحصل في سياق الحياة اليومية الروتينية يمكنه أن يطلق شرارة مثل ذلك الانفجار، ويحول الشخص الهادئ المسالم الرزين إلى وحش غاضب خطير أحمق، ثم يعود هذا الوحش إلى حالته الأولى ما أن تمر اختلاجة تكدر المزاج.

ومن المهم بشكل خاص أن نلاحظ تواتر العملية التي يقوم ضبط النفس من خلالها بإفساح المجال للمزاج كي يقوم بثورته، فالشخصية تتغير بشكل كامل بتأثير الثغرة التي ينفذ من خلالها تيار الغضب والعنف وباقي العواطف القوية عابرا سدَّ ضبط النفس في فترة قصيرة بشكل مذهل. وإذا ما طلب مني أن أبحث عن ارتباط ما بين المزاج العربي

## الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

والظواهر الطبيعية التي تكتنف بيئته. فسأفضل أن أشير إلى الوديان الصخرية الضيقة في الصحراء والتي تكون دوما جافة ولا حياة فيها. ولكنها عندما يهطل المطر. وإن كان على بعد أميال منها. فإنها تتحول فجأة إلى سيول غاضبة مدمرة تجرف أمامها الصخور وتدمر كل شيء يقف في طريقها. لتهدأ بعد عدة ساعات بنفس السرعة التي نهضت بها. وفي جميع الحالات، علي أن أعترف بأني أتذكر تلك الوديان في أكثر من مناسبة رأيت فيها رجلا عربيا هادئا متزنا يصيبه الغضب فجأة.

وكثيرة هي المشاهدات المتعلقة بهذا الانتقال السريع من ضبط النفس والهدوء إلى انفجار الغضب الذي لا يسيطر عليه. وهذه سانيا حمادي تناقش هذه المسألة بشيء من التفصيل، فتعرض كيفية تعبير العربي عن عواطفه في مجالات كثيرة. ف«العربي يتواصل مع الآخرين عبر الصراخ المصحوب بإشارات الغضب.» وعند المساومة في السوق يصيح ويتجادل في أمور تافهة . وإذا ما تعرض لأذى جسدي فهو «يعبر عن ألمه بحرية من خلال الكلمات والأصوات وحركات الجسد. وهو يتكلم ويشكو من ذلك بصراحة. ويظهر معاناته من خلال الأنين والتألم والبكاء.» وعندما تحدث حالة وفاة. «تسمح له ثقافته بأن يظهر سلوكا متفجرا بالعواطف. وأكثر من ذلك، يفترض به أن يظهر عواطفه وأساه بشكل مكشوف، فعليه أن ينتحب ويظهر ألمه وبؤسه.» وتعول المرأة بكاء عالٍ. ويتأسف الرجال. ولا يعتبر إظهار العواطف عند المصائب الشديدة أمرا مخلا بالرجولة. أما بالنسبة للغضب، فالعربي لا يملك مناعة ضده، وهو يشتعل غضبا بسهولة، ولا يكبح جماح غضبه؛ وإن أفلت فلا حدود لعواقبه. ويلاحظ كثرة العراك العائلي حيث يعتبر عادة يومية كما يقول المثل الشامي: «في كل مائدة عراق، ومع كل لقمة قلق.»<sup>1</sup>

ويمكن للعواطف أن تنفجر في أية لحظة وفي مناسبات غير متوقعة. ومن ذلك ما يذكره محمد نجيب، أول رئيس لمصر (1952-1954)، والذي تزعم مجموعة من الضباط الشباب الذين أجبروا الملك فاروق على التنحي عن الحكم، حيث ذكر بأنه عندما قام فاروق

(1) سانيا حمادي: مزاج العرب وشخصيتهم؛ ص43-54.

## الفصل العاشر: الحدية والعاطفة، الخيال والواقع

بمغادرة القصر الملكي «أقام خدم القصر، وفق التقاليد المصرية، مناحة كانت تسمع من على بعد ربع ميل». وعندما كان نجيب نفسه في لقائه الأخير مع الملك المخلوع، حيث رفضت كل طلباته وإن كانت صغيرة، يذكر بأنه: «كنا سوية مأخوذين بمزيج من العواطف إلى حد أن أعيننا كانت تترقق بالدموع»<sup>1</sup>

وتميل العواطف لأن تتحرر من عقالها عندما يكون المكان مملوءاً بالناس. وهذا مجيد خدوري يصف عواطف الشعب العراقي التي تجعل من السهل عليه أن يتشجع ويُدفع إلى القيام بمظاهرات ذات طابع عنيف، فيقول:

انضمت حشود من الشعب إلى الكتلة البشرية وتدفق المشاعر التي فاضت بها شوارع بغداد كلما قامت انتفاضة شعبية. وفي الماضي /قبل ثورة 1958، ورغم الأضرار التي سببتها الانتفاضات الشعبية في الأرواح والممتلكات... كانت تلك الحشود كفيضانات نهر دجلة: قادرة على التدمير لكنها قصيرة العمر وسريعة الخمود. وكان النظام الملكي مدركاً بشكل جيد لطبيعة هذه الانفجارات العاطفية وتعلم كيفية التعامل معها من خلال إفساح المجال للطوفان كي يمر سريعاً. وطالما قامت الشرطة بمجرد توجيه الحشود وإزالة ما حطمته... /ولكن في ثورة 1958/ ما أن غابت الشرطة عن الشوارع، إلا وقامت الطاقة الهائلة للحشود بتخريب لم تشهد له بغداد مثيلاً<sup>2</sup>

وحتى أن فايز صايغ وهو مدافع مستमित وأحد الأصوات الداعية للعروبة، يصف الجماهير العربية بأنها ميالة «لنوع من العرض المفرط لحيويتها العاطفية» ويتبع ذلك بأنها «مفرطة العاطفية» وتتميز بـ«حماس ساخن وأعمى نوعاً ما»<sup>3</sup>

(1) محمد نجيب: قدر مصر؛ ص 139.

(2) مجيد خدوري: العراق الجمهوري؛ ص 52.

(3) فايز صايغ: فهم العقل العربي؛ ص 13-14.